كيف تعلم أبناء القبائل العربية كتابة النقوش على الصخور والحجارة؟

زياد عبدالله طلافحة

ملخّص: لقد دوّن أبناء القبائل العربية آلاف النقوش والكتابات على الصخور والحجارة في مناطق واسعة من شمالي الجزيرة العربية، وبادية الشام، وغيرهما من المناطق، ولولا معرفتهم وإلمامهم بهذه الخطوط لما تسنّى لهم كتابتها. نحاول في هذا البحث تلمس بعض الطرق والوسائل والتي ربما سلكتها تلك القبائل في تعلم أبنائها الخط والكتابة، والتي لم يُرجّح لغاية الآن أيٌّ منها.

كلمات مفتاحية: القبائل، الكتابة، النقوش، البادية، التعليم.

***Abstract*:** *The people of Arabian tribes wrote down thousands of inscriptions and writings on rocks and stones in large areas at the north of Arabian Peninsula, the Levant and many other areas.*

They were familiar with these hand writings, so they were able to write those inscriptions.

In this research, we are trying to find some ways, which these tribes followed to teach their people hand writing, though none of these ways has been overweighed, yet.

المقدمة

أثار انتشار كتابة النقوش في مساحات واسعة ممتدة في البادية المعروفة باسم «الحرة» الواقعة إلى الجنوب من جبل العرب جنوبي سوريا عبر شرقي الأردن إلى منطقة الجوف بشمالي المملكة العربية السعودية، وغربي العراق، قبيل الميلاد أثارت دهشة لدى الباحثين (Macdonald 1993: 304).

فقد وُثقت عشرات الآلاف من النقوش التي نُقشت على الحجارة والصخور، وبناء على هذا الكمّ من النقوش فقد افترض الباحثون أن نسبة كبيرة من أهل البادية كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وأن هناك مجتمعات بدوية كانت تقرأ وتكتب، ولكن كيف تمكنت تلك المجتمعات البدوية قبل ألفي عام أو أكثر من الكتابة؟ وكيف استطاعت تلك المجتمعات -وهي تقضي جزءًا كبيرًا من وقتها في الترحال- أن تتعلم الكتابة بهذا المستوى، من دون وجودهم في دول تهتم بالتعليم والمدارس، والأهم ما هي الضرورة والحاجة التي دفعتهم إلى هذا الاهتمام بالتعلم والكتابة على الحجارة والصخور (محمد٢٠٢٠: ١).

من المعلوم أن الكتابة عند العرب كانت معروفة في حواضرهم قبيل الإسلام، وقد سجلوا بها عهودهم ومواثيقهم ومواعظهم وآثارهم (موسى ٢٠١٥: ٣٠).

ولكن الأمر الذي أثار الفضول بأننا نرى أيضا أهل البادية وقد انتشرت في بواديهم النقوش على الحجارة والصخور، وأنّ ما عُثر عليه من النقوش الصفائية، والثمودية، واللحيانية، والنبطية، وغيرها في شمالي الجزيرة، وبادية الشام، وعلى طول طرق القوافل التجارية يدلل على معرفتهم بالخط المسند كنظام كتابة قديمة تطور في جنوبي الجزيرة العربية منذ ألف سنة قبل الميلاد.

ولا شك أن من أهل الحواضر مَن كان يقرأ ويكتب بالقلم المسند، وبالقلم الذي دُوِّن به القرآن الكريم؛ فصار القلم الرسمي للإسلام (الأصفهاني١٩٣٠، ج٨: ٦٧٨).

لقد ترك أهل البادية عشرات الآلاف من النقوش، حيث وجدت الأحجار والصخور البازلتية الناتجة عن الحمم البركانية، إذ استخدموا أرضية الحجر البازلتي القاسي، والحجر الجيري الصحراوي أحيانا لكتابة تلك النقوش؛ لتسجيل حياتهم اليومية وتوثيق بعض أحداثها،

والتي تعبّر عن عواطفهم ولا سيما الحزن، وأديانهم وعلاقاتهم مع الشعوب المستقرة (ماكدونالد، المناصير ٢٠٢٠: ٢).

كتبت تلك النقوش بأداة حادة وصلبة بحيث يأخذ الخط مظاهر متعددة، منها: المزوي، ومنها اللين؛ ويغلب على الحرف عندها أن يكون عريضًا وواضحًا، أو بالحز بأداة حادة، ويكون الحرف رفيعًا وصغير الحجم غالبًا. ورافق بعض النقوش رسومات واقعية جدا بالرغم من صعوبة تنفيذها على الصخر؛ فلا نرى أشكالاً خرافية، ولا مشاهد لأساطير ميوثولوجيه، ولا تصوير للآلهة، بل هي مشاهد رمزية تنبض بالحياة والحركة والحيوية؛ فإذا رسم إنسان مثلًا فإنه يحدد برأس وجذع وأطراف في وضع وحركة معينة، أما الملابس، أو تفاصيل الوجه، أو غطاء الرأس، فلا نجد شيئًا من هذا إلا في حالات نادرة (المؤذن ١٩٩٨: ١٦٨-١٧٢).

أولا: رأي بعض الباحثين بخصوص كتابة أبناء البادية النقوش على الصخور والحجارة

أ- رأي Macdonald

قسّم ماكدونالد المجتمعات القديمة التي لها صلة بالكتابة إلى قسمين؛ مجتمع كتابي حتى لو كانت غالبية أفراده غير قادرة على القراءة والكتابة، ومجتمع غير كتابي حتى لو كان بعض أفراده قادرًا على القراءة والكتابة؛ لأن المهمات الأساسية في هذا المجتمع تنجزها الذاكرة والكلمة الشفاهية، ولذا يعد ماكدونالد مجتمعات البادية العربية الشامية وغيرها من النوع الثاني (محمد٢٠٢٠: ١).

وقال: إنّ الكتابة والقراءة لم تكن جوهرية عند أهل البادية وغير ضرورية للقيام بأمور الحياة الرئيسة؛ بل كانت نوعًا من اللهو، وأداة لملء الفراغ؛ فالنقوش الصفائية تكاد تكون كلها مخربشات، وكتّابها يتعاملون مع الكتابة كلعبة، لا طريقة جدية في التواصل من خلالها، والتي كانت وإلى حدّ كبير نتاج ساعات الفراغ القسري في الأوقات التي كان فيها كاتبوها ينقشون على الصخور؛ فلم تكن هناك ضرورة اجتماعية ملحّة تدفع البدو لتعلم الكتابة؛ فالضجر والزمن البطيء الثقيل هو الذي دفعهم لتعلمها، فالنقوش الناتجة عن هذا الوضع لم تكن موجهة إلى مستمع محدد أو مشاهد غير الكاتب نفسه، إنها مكتوبة من أجل متعته الشخصية، لا من أجل التواصل وإرسال الرسائل فهناك وقت فائض عند الرعاة، فهذا الزمن هو الذي وَلّد الكتابة! (Macdonald 2014: 146).

ولكن أهل البادية لم يعانوا من الضجر والزمن البطيء، بل كانوا في حركة دائمة لتأمين سبل العيش والبقاء على قيد الحياة، وربما زرعوا بعض الرحبات في جوانب الأودية الصالحة للزراعة لبعض المحاصيل لدوابهم؛ ليعززوا اقتناء حيواناتهم، وكان من أهل البادية من يقوم بمهمة الصيد، وهي عملية مضنية ومتعبة.

والحقيقة أن أهل البادية عرفوا أيضا الخط اليوناني وكتبوا به بعض نقوشهم، وهذا دليل أنه كان لديهم فهم آخر وحب المعرفة في التعلم، فقد وجد نقش عربي مكتوب بالخط اليوناني من القرن الثالث أو الرابع الميلادي، نصه: «ل أتى بن أوس بن عود بن بناءة بن كزم الإدامي من بلدة سعيع فأمضى الشتاء ورعى الكلأ في شهر كانون» (الجلاد٢٠١٨: ص٢).

لذا، يرى الباحث أن هناك مسوّغات أكيدة وجوهرية دفعت أبناء القبائل العربية لتعلم كتابة النقوش على الحجارة والصخور، فالاهتمام بالكتابة لا يعد لعبة فردية للتسلية والتغلب على الضجر، كما وصفهم بذلك ماكدونالد.

وبيّن جواد علي أن الرأي الراجح أنه كان من بينهم مَن يقرأ ويكتب، والدليل النقوش التي ترجع إلى ما قبل الإسلام، والتي عثر عليها مبعثرة في مواضع متناثرة من البوادي في شمالي الجزيرة وبادية الشام، وفي أماكن نائية وبعيدة عن الحضارة، فهي كتابات أعراب ورعاة إبل وبقر وأغنام؛ دَوَّنوها تسجيلًا لخاطر أو للذكرى أو رسالة لمن قد يأتي بعدهم فيقف على أمرهم (علي ١٩٧٦: ١٠٧).

ب - رأي J.T. Milik

يرى أن معظم كاتبي النقوش كانوا مستقرين، وليسوا بدوا؛ فقبل ألفي عام أو أكثر كانت معظم القبائل العربية مستقرة وكجزء من السكان، ولكنهم كانوا يمارسون النجعات الموسمية في البوادي (Milik,1980: 46).

ج- رأي M. Sartre

يرى أن الصفويين رعاة ومزارعين، ومنهم مجموعات متنقلة ومجموعات مستقرة، ويرى أن كاتبي النقوش الصفائية أفراد معزولون، كانوا يُرسلون إلى البادية من القرى الواقعة شرقي جبل حوران لرعي حيواناتها، فلا تكاد توجد النقوش في أي مكان آخر غير البادية، ولم تكتبت في القرى المستقرة لأنهم عاشوا في البادية، وهناك بعض الباحثين يصرون على أن كاتبيّ تلك النقوش كانوا يشكّلون جزءا من سكان قرى جبل حوران، ولكن لم يعثر على أي نقوش في المناطق المستقرة، وأن الأعداد الكبيرة من النقوش كانت في البوادي (Sartre,1992: 45).

ثانيًا: أسباب كتابة القبائل العربية النقوش على الصخور والحجارة

أ - عدم توافر الأدوات الخاصّة بالكتابة كالورق والبردي وغيرهما

لقد لجأت القبائل العربية لكتابة النقوش على الحجارة والصخور لعدم توافر أدوات خاصّة بالكتابة، فكانت الصخور والحجارة هي المتاحة آنذاك، والتي مكّنت الإنسان من استخدامها كأدوات للتعبير. وفي العصور القديمة كانت أوراق البردي باهظة الثمن خارج موطنها الأصلي في مصر، وبقي الحال كذلك حتى أصبح لدى أهل البادية بدائل أكثر عملية للكتابة مثل: رقاع الجلد، وجلود الحيوانات، والعظام، واللفائف؛ وفي المناطق المستقرة كان الفخارُ الأكثرَ شيوعًا للكتابة عليه؛ لكن البدو لم يكونوا يحملون في ترحالهم الكثير منه؛ لأنه قابل للكسر نتيجة للحِلِّ والترحال، وهكذا أصبحت أسطح الحجارة والصخور المتاحة هي أدوات الكتابة؛ لأنها متوافرة بكثرة؛ ولكن تلك الصخور لا تفيد كوسيط لإرسال الرسائل، ولا تصلح لمجتمع متنقل مثل أهل البادية، ولا تناسب كتابة العقود، ولا تسجيل التاريخ والشعر؛ ولذلك لم يعتمد أهل البادية على الكتابة بالطريقة التي اعتدنا عليها في العصور الحديثة (ماكدونالد، المناصير : ٢٠٢٠: ٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ هناك اكتشافات حديثة بيّنت أن بعض النقوش كتبت على الأواني الفخارية، والحجر المسامي المنحوت بشكل هندسي (طلافحة، خصاونة ٢٠١٧: ٩٣)، وذكر الروسان أنه عَثر على بعض النقوش التي كُتبت على الفخار وعلى الحجر الصابوني (الروسان ١٩٩٥: ٢٣).

ب- حفظ الأنساب

إنَّ المعارف التي عرفها العرب قبل الإسلام كانت وثيقة الصلة ببيئتهم الصحراوية، وكانت طبيعة تلك البيئة قد فرضت عليهم تعلّم علوم معينة يحتاجونها في حياتهم اليومية، كما أن الحياة القبلية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية وانقسام العرب إلى قبائل متفرقة كان له دور في بروز علوم معينة لعل أهمها علم الأنساب، وبخاصة إذا ما علمنا أن البدو كانوا قبائل متعددة؛ لذا، دفعتهم الحاجة الملحّة إلى أن يحفظوا أنسابهم التي يعتمدون عليها في عقد أحلافهم، أو في شن الغارات على أعدائهم (حسن ١٩٩١:ج١: ٥٨).

وعليه، كانت الميزة اللافتة للنقوش الصفائية بأن يغلب عليها الاهتمام والعناية بالأنساب؛ فكان كاتب النقش يذكر لأكثر من جد واحد في النقش، إذ يصل في بعضهم أن ينسب إلى الجد العاشر أو أكثر من ذلك أو أقل، وفي هذا النقش والذي عثر عليه في قاع الفهدة تصل سلسلة النسب فيه إلى الجد السابع «ل ف ر هـ ز ب ن ع م ر ب ن ع م د ب ن هـ م ل ك ب ن ب ع ز هـ ب ن ن ق ر ب ن ج د» لفرهز بن عمر بن عماد بن هملك بن بعزه بن نقر بن جد (طلافحة ٢٠١٧: ٧٤).

وفي هذا النقش الصفائي-الحسمائي المختلط يذكر فيه صاحبه سلسلة نسبه إلى الجد العاشر «ل ق د م ب ن ب غ ض ب ن ح ج ج ب ن و د د ا ل ب ن و ه ب ل ه ب ن ا ل و ذ ب ن و ت د ت ب ن غ ف ر ب ن ع م ذ ا ل و ض ا» ل قادم بن باغض بن حاجج بن ودد إيل بن وهب اللّه بن إيل عوذ بن واتدت بن غافر بن عم من قبيلة وضأ (الجلاد ٢٠٢٣: ٢).

وعلّق الأنصاري على قضية النسب بقوله: لقد بدأ اهتمام العرب بالأنساب قبل ظهور الإسلام، وكان كاتب النقش يعتني بسلسلة النسب الطويلة؛ لأنه يجد نفسه بحاجة إلى ذلك كأن يرتحل من مكان لآخر، ويتنقل بين القبائل؛ فيكون مضطرًا أن ينسب نفسه في سلسلة طويلة ويذكر اسم قبيلته (الأنصاري١٩٧٠ : ٩١). وذكر «ليتمان» أن أبناء القبائل البدوية ولعهد قريب كانوا

يتعلمون حفظ أسماء أسلافهم وهم صغار، وقد سمع أن بعض الصبية في شمال الحبشة (وهم قوم ساميون)، يتبارون في حفظ الأنساب، ويكافأ من يحفظ عددًا من أسماء أجداده (العبادي ١٩٨٨: ٩).

ويرى السامرائي أن الاهتمام بالأنساب كان من أهم الأسباب التي دفعت أبناء القبائل العربية لتعلم الخط وكتابة النقوش؛ لحفظ أنسابهم، وكان يتباينون في ذلك تباينًا يختلف باختلاف أماكنهم، ولاسيما أهل البوادي وأهل الحواضر، فأهل البوادي كان منهم الأمّيون؛ لأن طبيعة حياتهم في البادية لا تساعد على تعلّم القراءة والكتابة، ولا على ظهور العلوم وتطويرها، غير أن هذا لا يعني أنهم كانوا أميين جميعًا، لا قارئ بينهم ولا كاتب (السامرائي ٢٠٠٨: ٢).

وأكد الكميم أن ما أظهرته النقوش العربية القديمة شماليّها وجنوبيّها، يزيد جوانب الأمر جلاء ووضوحًا على أن ما حفظته لنا هذه النقوش والتي كتبت على الحجارة والصخور قد ذكروا من خلالها أنسابهم وكل ما خطر لهم (الكميم ٢٠٠٦: ٢)، ولعل عبارة ابن فارس عندما قال: «إنا لا نزعم أن العرب كلها: مدرًا ووبرًا قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها، وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم، فما كلٌ يعرف الكتابة والخط والقراءة (ابن فارس٢٠٠٩ : ٦).

ج- الكتابة علامات دالة في البوادي

تعلّم أهل البادية كتابة النقوش، ومنذ لحظة اتقانها تغيّر نظام العلامات في البوادي والحرّات، وأصبحت الحروف المكتوبة هي العلامة الظاهرة في نظام علامات البادية عمومًا، وبخاصة في رحلة الانتجاع، وعدت الكتابة نظام العلامات الجديد. لقد اكتشف أهل البادية أن لديهم علامات لا مثيل لها تتفوق على جميع العلامات الأخرى، وهي علامة بسيطة جدًا يسهل فهمها، ولا مجال للخطأ بشأن ما تعنيه فهي تحدد الأشياء بدقة كاملة فلا تستطيع المنارة المنصوبة أن تقول : «أنا مالك بن زعكرت»، وأنا موجود في هذا المكان فهي تشير إلى هذا إشارة لكنها لا تقوله بوضوح كافٍ أما الحروف المنقوشة على الصخر، فتقول هذا بدقةٍ فالعلامة الحجرية من أجل أن يراها الآخرون هي رسالة لكنها رسالة غير واضحة تمامًا، ويمكن الخطأ في تفسيرها، أما العلامة الكتابية فرسالة صادقة لا تخطئ في قول ما تريد (محمد ٢٠٢٠: ٨).

ثالثا: طرق تعلّم القبائل العربية القراءة والكتابة

غلب على نمط حياة أهل البادية الرعي والصيد فدوّنوا النقوش على الحجارة والصخور؛ لتروي جوانب مختلفة من حياتهم، ورغم هذا لم يخبروا عن الوسائل والطرق التي تعلّموا بها تلك الكتابة، وهذا يعد من أكبر الصعوبات التي واجهت الباحثين؛ للتعرف إلى تلك الوسائل والطرق، وأرى أن الطرق المفترضة لتعلم كتابة النقوش لدى أهل البادية تتمثل في النجعات ومعلم القبيلة والتلقين، وانتقال الخط عن طريق طرق القوافل إضافة إلى حب التعلم بالفضول.

أ- النجعات: النُّجْعةُ عند العرب المَذْهَبُ في طلَبِ الكلأ في موضعه، فيتبعوا مَساقِطَ الغيث ويَرْعَوْنَ الكَلأَ والعُشْبَ وإذا أَعْشَبَت البلادُ فلا يزالون في النُّجَعِ إلى أَن يَهيجَ العُشْبُ من عامَ قابل وتَنِشَّ الغُدْرانُ، فَيَرْجِعون إلى مَحاضِرهم (اللسان مادة: نجع).

ذكرت النجعات من خلال النقوش والكتابات وكشفت أن هناك عددًا لا بأس به من القبائل العربية، التي كانت تقطن الحواضر كانت تذهب من حواضرها وقراها إلى البوادي بما يسمى بالنجعات فكلمة «ن ج ع»، تذكر في العديد من النقوش «الصفائية» ومنها: «ل ت م ل ه ج ح ش ذ ا ل ا ش ل ل و ن ج ع م ن ا ج ب ل ل ر ج ل «ل تيم إله (بن) جحش من قبيلة أشلل خرج ونجع» وارتبع» من أجبل «جبل « لراجل (طلافحة، والحصان ١٤٣٥: ٣٩٥).

«ل ن ص ر ب ن ح ل م ب ن ب ح ر و ن ج ع ل س ر»، لنصر بن حلم بن بحر ونجع «وارتبع» في هذا الوادي (الروسان٢٠١٢: ٢٩).

وحين تعلم أهل البادية الكتابة وتعلّقوا بها سرعان ما استوعبوها، فالأب يعلّم الابن والكبير يعلّم الصغير ولم يكن هناك مدارس، لكن كان هناك معلمون، وهكذا انتشرت الكتابة في البوادي، وعليه أصبح أغلبهم يقرأ ويكتب (محمد ٢٠٢٠: ٩).

أما البني فيرى أن القبائل التي تذهب للنجعات لا بد وأن يكون من بين أفرادها مَن يعرف القراءة والكتابة؛ فيدوّنون ويكتبون على تلك الصخور والحجارة أسماءهم، وأنسابهم، وذكرياتهم، وأحزانهم وأشواقهم، ورحيل

أشياعهم، وسبيهم وغزواتهم، وممارسة حياتهم اليومية، ولكن لم يُعثر على مثل هذه الكتابات في المناطق الحضرية إلا القليل (البني٢٠٠٧: ص ١٠٤).

ب- معلم القبيلة

من الممكن أنه كان للقبيلة معلّم متخصص لدية المعرفة بالخط والكتابة، يكتب النقوش، وأوضح مثال لهذا الرأي هو نقوش قبيلة «عمرت» القبيلة العربية الكبيرة التي انتشرت في مناطق واسعة في البادية الأردنية والتي تميز خطها بالخط المربع؛ إذ يرى الروسان أن كاتبي هذا النوع من النقوش استخدموا بعض الأدوات الهندسية عند كتابتها، ولهذا الخط ميزات منها أن حروفه متباعدة، ويندر أن يرافق هذه الكتابات أي نوع من الرسومات، وخطوطه كتبت متوازية، وجميع أصحاب هذه النقوش ينتسبون إلى قبيلة عمرت؛ فلا يعقل أن جميع أفراد هذه القبيلة كانت لهم تلك المهارة الفنية والأدوات المخصوصة عند كتابة أي نقش من تلك النقوش (الروسان ١٩٩٥: ٢٤)؛ فليس بعيدا أن يكون لأبناء هذه القبيلة معلّم متخصص يكتب لهم نقوشهم، أو أنه علمهم الخط والكتابة.

ويعزّز وجود معلم متخصص في الكتابة للقبيلة، العثور على ثماني أبجديات للنقوش الصفائية في أماكن متباعدة في بادية بلاد الشام تدلل أن هناك نوعًا من التعليم كان يجري في نواحي تلك البوادي، وكانت هذه الأبجديات مختلفة الترتيب؛ أما أبجدية الخربة السمراء فكانت الأقرب نوعا ما للترتيب «ا ب ج هـ و ز» وقد اختلف خط الخربة السمراء عن باقي الخطوط، إذ عده كناوف الأقرب إلى الخط الثمودي، ويلاحظ أن الأحرف (ث) و (ج) و (ذ) و (ز) (ش) و (ض) و (ط) و (ظ) و(غ)، قد اختلفت أشكالها عن باقي الحروف في الخطوط الصفائية الأخرى (المناصير٢٠١١: ٩٢).

وهذا يدعونا إلى عرض موجز لتلك الأبجديات:

الأبجديات المكتشفة: عثر على ثماني أبجديات غالبيتها في بادية بلاد الشام ولكنها متباعدة عن بعضها بعضا، وتعد أبجديات خاصة. والأبجديات المكتشفة لغاية الوقت الحاضر هي:

١- أبجدية الخربة السمراء بين الزرقاء والمفرق في الأردن، وترتيبها: «ل ب ج هـ و ز ح ط ي ك م ن ص ر ع ف ق س ت غ ض ذ ث أ ظ ش خ» (Knauf,1985: 204).

٢ - أبجدية دير القنّ في الحرّة الأردنية وترتيبها: «ل ص ع ب ن ظ و ج ث د ر ك ش ف م هـ غ ق ض ط س ح ذ أخ ت ز ي» (Macdonaold 1986: 102).

٣- أبجدية البادية الأردنية وترتيبها: «ل هـ أ ذ ص ب ن خ د م ج و ع ش غ ف ر ض ح ق ط س ك ظ ت ز ي ث»، وقد اعتمد في ترتيب هذه الأبجديات على أشكال الحروف مع وجود بعض الاختلاف في المعايير التي استخدمت، وتكتب هذه الحروف منفصلة من جهة اليمين إلى الشمال أو على طريقة المحراث (King,1990: 62).

٤- أبجدية جنوبي سورية وترتيبها «ت ث ي ا ص ب ر م ل ن خ ه ز ك ح س ش غ ف ض ط ع و ج ذ د ظ ق ن ش ر ه ا» (Macdonald 2009: 86).

٥- أبجدية العيساوي في سورية وترتيبها: «ا ب(ج) د ز ت ث ق ي م ع(غ) ش ول ر ص ط ه ف س ب ح ذ غ ض ك خ ظ (Macdonald 2009: 86).

٦- أبجدية وادي قصاب في الأردن وترتيبها: «ل م ج ع ن ت ب خ ذ ق د ه ض ي ظ غ ف ش ر و ث ص ط ح س ز ا ك (الروسان ٢٠٠٥: ٢٩٥).

٧- أبجدية وادي سلمى في الأردن: ل ن ض ظ س ج ع و ز ا ه ص ق د ي ر ش ف ك ت خ ط ث غ ذ ن م «ح ب» (الروسان ٢٠٠٥: ٢٩٦).

٨- أبجدية وادي السوع في سورية «ل ز ك ه ع و ط ض ص ظ م ب ن ذ ج ف ش غ أي خ ر ق د ت س ث ح (علولو ١٩٩٦: نقش ١٦٩). فليس بعيدا أن يكون معلم القبيلة هو من كتب تلك الأبجديات لتلاميذه ليتعلموها.

ج - التلقين

وهو من الطرق المحتملة في تعلم الخط والكتابة بحيث تنتقل هذه الأبجديات من جيل إلى آخر عن طريق التلقين الذي انتقل من الآباء إلى الأبناء؛ لأن الحياة الثقافية للعرب قبل الإسلام اعتمدت على الثقافة

الشفوية أكثر من المكتوبة؛ إذ عوّل العرب على ذاكرتهم القوية لحفظ أنسابهم ومعارفهم وتراثهم، يتداولونه فيما بينهم وينقلونه من جيل إلى جيل (حمودة ١٩٩٨: ١)

وليس من الصعب أن يحفظ أهل البادية أبجديات تلك الحروف؛ فهي خالية من التعقيد والإعجام والمطلوب من استخدامها تدوين سلسلة النسب على الأغلب، واستخدام بعض الأفعال والاستغاثة بالآلهة. فالنقش ذو عبارات قصيرة وألفاظ متكررة، ولم يعثر لهذا الحين استخدام هذه الأبجديات في قصيدة شعرية أو نص أدبي أو إشارات تاريخه واضحة.

إن التلقين من الموروث العربي وليس بدعة جديدة، فقد كان سائدا عندما كان الهدف من التعلم والتعليم حفظ ما هو مطلوب من المتعلم، وبتلك الطريقة استطاع العرب حفظ التراث رغم التقلبات السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة، وبقي هذا المورث الاجتماعي مستمرًا عن طريق الكتاتيب والذي لولاه لما وصل إلينا التراث العربي والإسلامي (ابن بطوطة ١٩٨٧، ج١: ١١٠).

وبهذا وجدت ظاهرة الكتابة في مجتمعات أهل البادية حتى صار مجتمعًا كتابيًا، ومن ناحية ثانية كان المجتمع البدوي يستخدم هذا الكتابة لإنجاز مهماته الضرورية وعلى رأسها نشاطه في مختلف نواحي الحياة (محمد٢٠٢٠: ٩).

د- حب التعلّم بالفضول

يرى ماكدونالد أنه إذا ذهب بدوي إلى واحة أو مجتمع مثل مجتمع مدينة تيماء، ورأى تاجرا يكتب وصل استلام أو رسالة قد يسأله «ماذا تفعل؟» وعندما يجيبه يطلب منه أن يعلمه كيف يقوم بذلك، من باب الفضول أيضا وبعد أن يتعلم ذلك البدوي الكتابة يعود الى البادية فيستعرض مهاراته أمام أسرته وأصدقائه ويقوم بكتابة «الرسائل» التي يريدها على التراب أو يحفرها بواسطة أداة حادة على الصخور، ربما حدثت مرات عديدة، وهذه المهارات تم تمريرها من خلال أفراد من مجموعة من البدو الرحّل إلى نظرائهم من مجموعات أخرى، والتي وجد الباحثون أدلة على هذه العملية التعليمية غير الرسمية في عدد من الكتابات التي تمثل قائمة من الحروف الأبجدية، وليست تلك التقليدية التي كانت معروفة بحروف الأبجدية العربية الجنوبية (مكدونالد ٢٠١٥: ٢).

هـ- طرق القوافل والتجارة

لقد كانت الطرق التجارية من الوسائل التي انتقلت من خلالها الكتابة والقراءة، وقد استطاعت المنافذ التجارية الشمالية أن تنقل معها القلم الآرامي والنبطي والتدمري الذي وجد في مناطق متفرقة في شمالي الجزيرة العربية ووسطها، وأوضح مثال القلم الآرامي الذي وجد في الأختام والأوزان البرونزية كتلك المكتشفة في موقع قرية الفاو (الأنصاري ١٩٨٢: ٢٣).

ونتيجة لتعلم أهل البادية الخط والكتابة، نجد مفردات دالّة على عملية الكتابة نفسها عند عرب الشمال، ففي النقوش الصفائية وردت كلمة «س ف ر» بمعنى: كتابة (SIJ291)، وجاء في اللحيانية «س ف ر هـ» بمعنى: كَتَبَ، دَوّنَ (القدرة ١٩٩٣: ١٣٨)، ووردت كلمة «س ف ر ا» في النبطية ومعناها: الكاتب، المعلم (الذييب ٢٠٠٢: ١٦٣)، وكذلك وردت كلمة «خ ط ط» في النقوش «الصفائية «لتعني الخط والرسم، وفي الثمودية «خ ط ط» بمعنى الخط والكتابة (الذييب١٩٩٩: ١٦٢)، ومن المفردات التي ذكرت أيضا في النقوش العربية وتدل على الكتابة والقراءة كلمة «س ط ر» فقد وردت في الثمودية «أ س ط ر» اسم في حالة الجمع بمعنى: «أسطر»، و» س ط ر ت» بمعنى: كتبت، سطرت (المهباش٢٠٠٣: ٨٥)، ومعنى «س ط ر» في النقوش اللحيانية: كتب، دوّن (القدرة ١٩٩٣: ١٣٥)، فهذه المفردات بمجموعها تدل على أن كاتبي النقوش قد عرفوا مصطلحات الكتابة والقراءة وأنهم يقومون بهذا الفعل.

الخاتمة

يرى الباحث أن طرق التعليم السابقة ممثلة بالنجعات، ومعلم القبيلة، والتلقين، وحبّ التعلم بالفضول، وانتقال الخط والكتابة عن طريق القوافل التجارية أسهمت جميعها في تعليم أبناء القبائل الخط والكتابة، حيث كتبوا به نقوشهم في حلهم وترحالهم، وكانت البوادي هي البيئة الواسعة التي انتشرت بها هذه النقوش الكثيرة التي تدلّ على شيوع الكتابة والقراءة عند أبناء القبائل العربية قبل الإسلام، وربما يظهر مع البحث لاحقًا ما يجزم بالطريقة الرئيسة التي سلكتها القبائل في تعلم الخط المسند العربي الشمالي لأبنائها، ولكني أرى أنه لا يخرج تعلمهم للخط والكتابة عن الطرق التي تناولها هذا البحث.

قائمة المختصرات

HIN: Harding, G. L. 1971.
ISB: W. G. Oxtoby. 1968.
TIJ: Harding, G. and Littmann, E. 1952.
L: Littmann, E. 1940.
LP: Littmann, E. Safaitic Inscriptions, 1943.
Winnett. F. V. and Harding, G.L.1978: WH.

د. زياد عبدالله طلافحة: باحث نقوش وكتابات قديمة، جحفية، إربد، الأردن.

المراجع:

أولًا: المراجع العربية

ابن بطوطة، محمد بن عبدالله ١٩٨٧، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ج١، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.

البني، عدنان ٢٠٠١، **التراث العربي**، العرب والكتابة، العدد ٨١- ٨٢، دمشق، سوريا.

جواد، علي ١٩٧٦، **كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان .

حسن إبراهيم، حسن ١٩٩١، **تاريخ الإسلام**، دار الجيل، بيروت، لبنان.

الجلاد، أحمد ٢٠١٨، **سيرة جديدة لولادة اللغة العربية.**

https://www.academia.edu

..... ٢٠٢٣، **اعتناء عرب الجاهلية بنسبهم**، rattibha. com.

حمودة، محمود عباس ١٩٩١، **تاريخ الكتاب الإسلامي**، دار غريب، القاهرة.

الذييب، سليمان بن عبد الرحمن ١٩٩٩، **نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

..... ٢٠٠٢، **نقوش النبطية** مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

الروسان، محمود ١٩٨٧، **القبائل الثمودية والصفائية، دراسة مقارنة، جامعة الملك سعود عمادة شؤون المكتبات**، الرياض.

..... محمود ١٩٩٥، "دراسات في أنماط الخط الصفوي"، **دراسات في تاريخ الأردن**، المجلد الخامس، الأردن.

..... ٢٠٠٥ **نقوش صفوية جديدة من وادي قصاب شمال الأردن**، قسم الاثار والمتاحف، جامعة الملك سعود الرياض، المملكة العربية السعودية.

..... ٢٠١٢، "رجم المعبود كهل: من خلال النقوش العربية الشمالية"، **أدوماتو** العدد الخامس والعشرون، الرياض، المملكة العربية السعودية.

السامرائي، عبد الجبار محمود 2008 ، "الكتابة والقراءة في جزيرة العرب قبل الإسلام"، **مجلة الواحة**، نيقوسيا، قبرص.

الأصفهاني، أبو الفرج١٩٣٠، **كتاب الأغاني**، دار الكتب المصرية، ج٨، القاهرة، مصر.

طلافحة، زياد٢٠١٧، **لغة النقوش الصفائية وصلتها بلهجة البادية الشمالية الأردنية، دراسة مقارنة**، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن.

طلافحة، زياد، وخصاونة ٢٠١٦، "نقوش عربية شمالية من متحف سريا اربد"، **أدوماتو**، العددالخامس والثلاثون، الرياض، المملكة العربية السعودية.

طلافحة، زياد ، وعبدالقادر الحصان ٢٠١٥، "نقوش عربية شمالية(صفائية) من تلول مقطع ذيل الفرس البادية الأردنية"، **مجلة جامعة طيبة، السنة الرابعة، العدد السابع**، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

طلافحة، زياد ٢٠٠٩، **نقوش نقوش صفوية من تلة الفهداوي بالبادية الأردنية، أدوماتو**، العدد ١٩، الرياض، المملكة العربية السعودية.

العبادي، صبري ١٩٨٨، «الجلاء عند الصفائيين العرب»، **دراسات الجامعة الأردنية**، مج ١٥، ع٧، عمان، الأردن.

ابن فارس، أحمد بن زكريا ٢٠٠٩، **كتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، بيروت.

علولو، غازي محمد يوسف ١٩٩٦، دراسة نقوش صفوية جديدة من وادي السوع جنوب سورية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، أربد.

القدرة، حسين محمد عايش١٩٩٣، دراسة معجمية لألفاظ النقوش اللحيانية في إطار اللغات السامية الجنوبية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد.

ماكدونالد، المناصير٢٠٢٠، «**حرة الحرة» تاريخ بدو شبه الجزيرة العربية القدماء على الصخور البركانية.** المصدر : الجزيرة + مواقع إلكترونية

ماكدونالد، مايكل ٢٠١٥، **تعاين نقوش البدو على الصخور.** https://www.assabeel.net/197837

محمد، زكريا ٢٠٢٠، **الكتابة في صحارى بادية الشام والجزيرة العربية: تسلية أم ضرورة.**

محمد، زكريا ٢٠٢٠، **الكتابة في الصحاري العربية- السورية: رد على فرضية ماكدونالد حول الكتابة** https://www.academia.edu

المناصير، علي ٢٠١١، "خط النقوش العربية الشمالية القديمة(الصفائية)"، **مجلة جامعة الملك سعود، السياحة والآثار**(2)، **المجلد الثالث والعشرون، الرياض**، المملكة العربية السعودية.

المهباش٢٠٠٣، خالد بن عبد العزيز، مفردات النقوش الثمودية دراسة دلالية مقارنة في إطار اللغات السامية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض.

المؤذن، منى ١٩٩٨ "التراث العربي"، **الكتابات العربية الجنوبية في سوريا (النقوش الصفائية)**، العدد٧١- ٧٢، دمشق، سوريا.

موسى، قاسم العيبي٢٠٢٠، "دراسة حول تطور الكتابة العربية من النقوش على الألواح إلى الكتابة على الورق"، **مجلة الفنون والادب وعلوم الإنسانيات والاجتماع**، العدد٥٨، كلية الإمارات للعلوم التربوية والنفسية، أبو ظبي.

الأنصاري، عبد الرحمن الطيب١٩٧٠، **لمحات عن القبائل العربية البائدة**، مطبوعات جمعية التاريخ والآثار، عدد١، الرياض.

..... عبدالرحمن الطيب١٩٨٢، **قرية الفاو (صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية)، جامعة الرياض**، المملكة العربية السعودية.

ثانيًا: المراجع غير العربية

Pre- Islamic Arabia. Farnham: Ashgate.

Macdonald, M. C. A. 2014. **Romans Go Home'? Rome and Other 'Outsiders' as Viewed from the Syro-Arabian** Desert peeters leuven - paris- Walpole, ma.

Mallik J.T., 1980. **"La tribu des Bani cAmrat en Jordanie de l'époque grecque et romaine" ADAJ 24:** p 41-54.

Sartre (M.)1992. **Transhumance, économie et société de montagne en Syrie du sud"** Pp39-54.

Winnett, F. Harding.G.1978. **Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns:** Toronto: University of Toronto Press, (WH).

Winnett.F.V.1957. **SafaiticInscriptions from Jordan**, Toronto: University of Toronto Press, (SIJ).

King, G., 1990. Early North Arabian Thamudic E: A Preliminary description based on a new corpus of inscriptions from the Hisma desert of southern of Jordan and published material, Unpublished Ph.D thesis School of Orriental and African Studis.

Knauf, E. A. 1985. "A South Safaitic Alphabet from Khirbet, es-Samra_". **Levant**. 17: 204-206.

Littmann, E., 1943. **Safaitic Inscriptions, Leiden**: Publications of Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904-1905 and1909. (LP).

Macdonald, M. C. A. 1986. «ABCs and Letter Order in Ancient North Arabian". **PSAS**. 16: 101-168.

Macdonald, M. C. A 1993. "Nomads and the _aurān in the Late Hellenistic and Roman Periods. An eassessment of the Epigraphic Evidence", **Syria**. 70: 303-413.

Macdonald, M. C. A**,** 2009**. Literacy and Identity in**